ممدوح عدوان الأديب والشاعر والمسرحي :

الفن الميت هو فن موتى .. يكتبه موتى ويتلقاه موتى

■ يقول مظفر النواب: «قليل من الناس من يترك في كل شيء مذاقاً» .. وممدوح عدوان واحد من هذا القليل فهو الشاعر والكاتب المسرحي . والكاتب الدرامي والصحفي .. والمترجم والمثقف الصاخب ، الحاضر دائما بحيوية يحسد عليها وفي كل هذ وذاك هو ممدوح الانسان الذي يترك نكهته بكل ما تلمسه أصابعه وبغض النظر عمن يقف إلى جانبه او ينتقده ، فالكل يسلم له هذا الحضور الابداعي والثقافي المشع الذي امتلأ عبر السنين ألواناً وتنوعاً ، وخبرة ، وعمقاً حتى بات واحدا من أعلام المشهد الثقافي السوري .

في هذا الحور يلقي عدوان الاضواء على خلفية هذا التنوع الهاجس الذي لم يشبع نهمه بعد انجاز ستين كتاباً ، لكأنه يريد أيضا أن يطير ويرقص ويغني ويمثل بجسده وروحه كي يعبر عن هذا التوق الجارف للتعبير بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة .

ممدوح عدوان

حاوره/سعيد البرغوثي

■ لنبدأ من الماضي ، ونتكلم قليلاً عن المكان ، عن الطفولة .. عن البدايات ؟ وعن منابع «الوحشة» في أعمالك الاخيرة ؟

– حين تكون فتياً ، تتوهم أنك تصنع نفسك ، وانك تبني هذا الكيان ، الذي هو أنت ، عبر جهدك الخاص ، بالقراءة والكتابة والتجربة . بعد ان تهدأ الفورة ، ويخلد الانسان قليلاً إلى نفسه ، يكتشف داخلها مكونات قد تجاهلها ، وكلها من مؤثرات الماضي ، من الأب والقرية والطفولة ، وايضاً من الفلكلور والتراث .. مجموعة أشياء مترسبة في النفس هي التي تعطيك خصوصيتك ، دون أن تدري .

كل واحد من أبناء جيلنا يتذكر تلك القرية ، وذلك الزقاق، أو ذلك الجبل وتلك الشجرة ، ويسبح في ذلك الماء الوسخ ، الآسن ، الذي كان يعتبره بحراً ، لقد كنا نعيش مع الطبيعة كجزء منها ، الفاجعة الآن هي اكتشافنا أننا في اللامكان لأن المكان الغي ولم يعد له حضور إلا في الذاكرة ، هذا الكلام ينطبق على طفولتي في قريتي ، وقد ينطبق على فلسطيني يحلم بفلسطين ، هذا الفلسطيني حتى لو عاد إلى فلسطين ، فسوف يرى فلسطين أخرى غير التي حلم بها ، وبالتالي هو يحلم بشيء لم يعد موجوداً ، لانه بمعنى ما ، يريد أن يعود لكي يعيش الحلم ، وكأنه يريد العودة إلى رحم أمه ، وهذا مستحيل .

أعتقد ان أحد اسرار ، أسره الرحابنة لنا ، هو تمسكهم بهذا الماضي ، وكأنه موجود فعلاً ، فهم غنوا للقرية عبر وهم أننا في القرية ، ولكن في الواقع لا القرية موجودة ، ولا طفولتنا موجودة .

اما «الوحشة» التي أتيت على ذكرها ، ربما ناجمة عن أحساس بالخواء ، فأنا الآن ، في عمر بدأت أحس معه أن المستقبل مغلق ، والماضي الذي اكتشفت انه كونني ، باق في كندوب ، وكل ما أحن إليه لم يعد موجوداً ، وحتى ما هو موجود ، مثل الأب الذي أخاطبه في ديواني الاخير : «وعليك تتكئ الحياة» اتمنى ان يموت وهو محتفظ بكرامته ، لأنني لا أريد له ان يذل، كما هو حاصل معنا، فنحن نخشى ان يمضي الحال بناء نحو الاسوأ .

● تذكرني بمطلع قصيدة لسلمى الخضراء الجيوسي، تقول فيها عند زيارتها لمدينتها صفد :« غريبة انا يا صفد وانت غريبة» .

– لاشك ان سلمى تعبر عن شعور بشخصي، انما تجاه قضية عامة، ذات يوم، عندما جاء محمود درويش إلى دمشق وأجرى معه التلفزيون السوري مقابلة ، كنت اتمنى يومها أن أجري هذه المقابلة لكن حال دون ذلك بيروقراطية تافهة، ولو اجريت المقابلة، كان بودي ان ابدأ الحوار معه بالسؤال التالي : «أحن إلى خبز امي، وقهوة أمي» عندما رجعت يا محمود إلى هناك، هل وجدت امك؟! «حتى لو لم تمت» هل وجدتها؟! وكذلك هي شممت هناك رائحة قهوتها أم كنت تحمل ذلك في الذاكرة فقط ؟ كل الأصدقاء الفلسطينيين الذين رجعوا بعد أوسلو «طبعاً لهم عذرهم في هذا التوق للعودة للوطن» لم يجدوا الحلم الذي كان يسكنهم .

تعمد الغموض في الشعر... كتعمد الوطنية .. وتعمد البذاءة

● اعتقد ان محمود درويش طرح مثل هذا التساؤل بمعنى ما، لقد تساءل: عندما اعود إلى فلسطين، هل سأجد فلسطين؟ فهل تقصد هذا المعنى ؟

– هو كذلك ، انه موضوع جوهري . ودقيق في النفس الانسانية، وهو أمر ينطبق على كل البشر سواء كانت قضيتهم سياسية ، أم نوستالجيا طفولية ، أو حتى عاطفية ، كأن تكون عاشقا لفتاة وتغيب عنها عشر سنوات ، تعود وانت في غاية التوق لرؤيتها ، ولكن عندما تراها لن تلقى تلك الفتاة التي غادرتها قبل عشر سنوات ، بل ستجد فتاة أخرى ، وذلك فإما ان تتآمر على نفسك ، وتقول هذه الفتاة التي أحب ، أو ستبدأ بعمل شاق جداً في البحث عن تلك الفتاة داخل هذه المرأة .

● التنوع والغزارة في الكتابة في أكثر من حقل إبداعي «الشعر ، المسرح ، الدراما .. الصحافة» هي من الامور اللافتة في تجربتك الابداعية فكيف تجد الوقت والطاقة لمقاربة كل هذه الاشياء ؟

– أعتقد أن هكذا سؤال ، يمكن أن يجيب عليه ناقد ، ولكن بإمكاني الاجابة عليه بالبساطة التالية : أنا أفعل ما أعتقد أنني أستطيع فعله ، وأشعر أن لدي طاقة ، وتراكماً ثقافيا وعندي رؤية نقدية «دون ان اكتب النقد» تمكنني من الكتابة في كل هذا الاشكال الابداعية .

باختصار ، رغم كل ما يقال عني ، أو أسأل عنه حول تعدد الانشطة التي اقوم بها ، فأنا أحس بالفقر في إنتاجي! واتمنى ان تكون الانشطة متاحة أكثر لكي أعبر عني نفسي أكثر ، لأنني اخشى ان أتعود التعبير عن نفسي بطريقة واحدة، وبمنهج واحد ، اذ ثمة ظلال تبقى في النفس لايمكنك التعبير عنها لانها لا تصلح لهذا الجنس الفني أو ذاك ، لكنها موجودة في داخلك .

فأنا عندما أريد أن أكتب ، أشعر ان هذا الشيء الذي يعتمل في داخلي لا يصلح إلا كقصيدة ، فأكتب الشعر ، وحينئذ ألغي من داخلي : المترجم ، والمسرحي ، والصحافي ، وأتعامل مع الحالة بوصفي شاعراً ، ثم يخطر لي خاطر ما ، فاقول : هذا لا يصلح إلا مسرحية، فاكتبه نصا مسرحيا ، وعند ذلك يصبح عقلي مسرحيا فقط ، أظن ان هذا الأمر ممكن وبسيط لإنسان يعتبر الثقافة هماً وحرفة ، ولا يكتب بدافع الهواية فقط ، هاجسي ان أتقن ما أفعله ، لكن لاشك أن التعامل مع هذه الفنون كلها قد أغنى تجربتي في كل جنس من أجناسها، فالقصيدة عندما تكون درامية ، تكون أكثر قوة ، وأن يكون في المسرحية شعاع شعري ، تصبح أكثر قوة وجمالاً ، ولا تكون مسطحة بالمعنى الواقعي المباشر ، وحتى الزاوية الصحفية ، حين تكتب بحرارة وروح شعرية تتألق وتختلف عن كل الزوايا الصحفية الاخرى ، وهنا أود أن أفتعل هجوماً معاكسا واقول : انا سعيد بأن لدي وسائل تعبير أتقنها ، واتمنى لو أن لدي وسائل تعبير اخرى أتقنها أيضا ، أتمنى أن أكون راقصا وموسيقيا .. أو ممثلاً ، لكي أعبر عن نفسي أكثر .

أيضا لدي إحساس دائم بضيق الوقت ، الذي لا يمكن تعويضه ، وفي هذا السياق أشعر أنني منفعل كثيراً بكازانتزاكي ، وأحس أنه يشبهني كثيراً ، أو أنا أشبهه !

عندما ترجمت السيرة الذاتية لكازانتزاكي «تقرير إلى غريكو» لمست هذا التقاطع فه يقول : «ان احساسه بالضغط ، بمواجهة الاشياء الكثيرة التي يريد ان يكتب عنها كبير جداً ، حيث لايوجد لديه زمن كاف لذلك ، خاصة وانه بالوقت نفسه يريد ان يعيش يقول : بودي ان أنزل للشارع واشحذ من الناس الذين يهدرون الوقت بلا معنى ربع ساعة من عمر كل منهم ، وطبعاً هذا ايضا غير ممكن «لدي احساس مماثل بأن الوقت ضيق جدا ، لأن حجم الاشياء التي نتعامل معها اكبر واوسع كثير من الوحدة الزمنية المتاحة لنا ، مع ذلك ورغم كل ما أنجزته أحس فعلا أن هناك أشياء في داخلي لم أعبر عنها بعد.

● انطلاقا من كون الخطاب المسرحي هو خطاب ثقافي بامتياز ، كما الخطاب السينمائي .. بماذا تفسر طغيان التلفزيون ، وكيف ترى إلى بعث حياة مسرحية وسينمائية تكاد تكون مفتقدة في بلدنا ؟

– هي مفتقدة فعلا ، كم فيلم ينتج سنويا في سورية ؟! الصالات السينمائية بائسة، ولم تتجدد منذ نصف قرن ، وهذا بسبب عدم الاهتمام بالجمهور الذي يرتاد الصالات ، وايضا لأن استيراد الافلام محصور بقنوات ضيقة ، وعقليات رقابية تافهة ، في حين يتعذر علينا رؤية الافلام التي تغزو العالم ، والتي تحصل على جوائز ، في النهاية الجمهور معزول عن رؤية السينما الحقيقية ، والمتميزة ، إضافة إلى كسل الجمهور المكتفي بمتابعة ما يعرضه التلفزيون ،

الآن هناك ما أسميه ، حصار التفاهة .. عندما تعوّد مجموعة من الناس على الاستمتاع بالتفاهة ، عبر القصة البوليسية او القصة الجنسية الخ .. فهذا الأمر يروض العقول ويعودها على الاستمتاع والاسترخاء ، أمام هذا النوع من الاداء ، وبالتالي عندما يأتي أداء أكثر عمقا يصبح متعباً وعبئا عليهم ، فلا يقبلون عليه، إذن المشكلة ليست بالمسرح او الشعر ولا بالشاعر ، وانما بهذا المناخ الذي افسد الناس .

● انت تكتب دراما تلفزيونية بأكثر من موضوع ، هناك فرق شاسع مثلا بين «دائرة النار» كدراما اجتماعية معاصرة، وعملك الاخير «الزير سالم» كدراما تاريخية .. او عملك الذي يصور حالياً «المتنبي» .. ما الذي تقدمه هذه الاخيرة للمتلقي وهي من تقاطع مع الراهن ؟

– شرعت في كتابة الدراما التلفزيونية، وأنا أحس ان هذه الشاشة التي تقتحم البيوت يجب ان لا نتركها لعديمي الموهبة ومروجي التفاهة إلخ .. ومن خلال ملاحظتي لما يطرح هناك اشياء تعجبني .. واشياء لا تعجبني ، وحين اصدم بما لايعجبني أقول لنفسي : لو كنت الكاتب لكتبت كذا .. ولأنني قادم الى الكتابة الدرامية من المسرح والشعر، كان يهمني بطريقة مباشرة ، أو حتى تعليمية أن اقول للكتاب: «هكذا يجب ان تخدم الشخصية الدرامية» لكنني بالتأكيد لم اكتب بهدف إعطاء الدروس. انا كتبت الدراما لأروي قصصاً، واقدم متعة ، كما يفعل الفن، ففي التلفزيون ، كما هو الحال في المسرح، وربما كما الحال مع الشعر ، كنت ابحث عن الصلة غير المرئية في النفس البشرية ،انسان اليوم الموجود حولنا نراه في الدراما السائدة ضمن نمط واحد، فمعظم الاعمال الدرامية تقدم لنا نمط الشرير أو الخائن .. والخائنة .. الى الشريفة .. او المرابي الخ .. هذا كلها انماط، وهذا اسوأ ما في الدراما، انا اردت منذ البداية ان أبين كل شخصية كما هي، فكل شخصية قادرة على الدفاع عن سلوكها، حتى اللص، يمكنه أن يبرر، لماذا هو لص، فإذا سئل امام المحكمة لماذا سرقت ، فسيقول لأني محتاج وجائع، وهكذا فدائما هناك حجة ما .. لماذا اغتصبت امرأة ؟ يقول انا مكبوت، أو ربما هي كانت متعرية وأغرتني .. فأنا اريد للشخصية ان تقدم حجتها، وهي مقتنعة بها، لقد عودتنا الدراما المصرية والهندية على تقديم الشرير شريراً مطلقاً ، والخير خيراً مطلقاً، برأيي في أعماق كل واحد منا بما في ذلك انا – يوجد لص وفدائي، وشريف، وشاعر، ومرابي، لولا ذلك لما استطعت أن أفهم هؤلاء الناس، طبعا تساعدني الثقافة على فهمهم وفهم نفسي، ومعالجة هذا المسألة تتم في الدراما التلفزيونية ، كما في الشعر والمسرح بناءً على هذا الفهم وسواء كان الحدث واقعيا او تاريخيا لذلك انا لا ارى على الاطلاق اي فرق في معالجتي بين «الزير سالم» و«دائرة النار» وبين «ليل العبيد» و«الخدامة»، ففي كل هذه الاعمال هناك بشر يجب ان نفهمهم .

هؤلاء البشر ليسوا مصنّعين، بل هم بشر مثلنا، فالزير سالم يمكن ان يتكلم مثلنا، والمدير العام في مسلسل ما، يشبه مثيله في الحياة، كلهم يتكلمون مثلنا، ولكن كل واحد ضمن الظروف والشروط المحيطة به مضافا إلى ذلك ايقاع العصر الذي يعيش فيه .

● لنعد إلى الشعر، وانت الشاعر، يرى البعض ان الشعر الحداثي، يفتقر للغنائية ومغرق في الغموض، وهذا يحيل إلى قطيعة مع المتلقي، كيف تنظر إلى ذلك عبر تجاربك الشخصية، وعبر رصدك لشعراء آخرين ؟ وماهي برأيك أهمية وضرورة الغنائية في الشعر ؟

– بشكل شخصي ارى ان الغنائية ضرورية جداً. ولكن من الممكن ان يكون لهذه الغنائية معنى متطور، فأنا ارى مثلا محمد الماغوط الذي يكتب قصيدة نثرية هو شاعر غنائي، واري المتنبي شاعراً غنائياً، اذن الغنائية هي كل ما يلامس .

الاعماق الانسانية، وهي ليست في الصيغ اللغوية، هناك صياغات لغوية ركيكة وهناك شعراء مدعون للشعر، وهذا دائما موجود حتى في زمن المتنبي «في كل يوم تحت ابطي شويعر» لكن المتنبي بقي هو الشاعر فوجود «شويعرون» و«مدعو شعر»، يجب ألا يلغي قدرتنا على رؤية الشعر، لا شك ان الحداثة كانت مربكة في الحياة العربية، فهي حتى بصريا ادت إلى تغيير في شكل القصيدة، وإلى تغيير في شكل التعامل مع القارئ، ايضا تعمقت الحداثة أكثر من ذلك عندما اخذت تتعامل مع موضوعات لم يكن يتم التعامل معها، او الاستفادة منها سابقاً وأعني الموضوعات التي تتناول الاعماق النفسية وتستفيد من المكتشفات في علم النفس والأنتربولوجيا ، فهذه المكتشفات إضافة إلى العقل المعرفي للشاعر نفسه هي اضافات يقولها الشاعر بينما ظل القارئ بعيداً عنها تماما .

وبرأيي: انا كان الشاعر شاعراً حقيقيا فهو يستطيع ان يستفيد ويمتص كل هذا النسغ الخارجي ويصنع منه قصيدة يقبلها القارئ المتوسط وليس الأمي أو الجاهل، ولكن القارئ المتوسط الثقافة ليس همه الشعر اولاً . ثانياً الشاعر اللبيب يضيف على هذه التقنية الماهرة حسه الشعري العميق .

● لم تحدثني في اجابتك عن بعض الشعراء الذين يتعمدون الغموض ويرون في ذلك الغموض تمايزاً ، ألا ترى ان ذلك الغموض يمكن ان يحيل الى قطيعة حتى مع النخبة ؟

– الغموض هو صفة الجمال ، كل جمال هو غامض، ولكن تعمد الغموض كتعمد الوطنية وكتعمد البذاءة .. أي تعمد في القصيدة يفسدها .. وأنا أريد أن أدقق قليلا في هذه المسألة فأحيانا ثقافة الشاعر تطغى على القصيدة، فربما يستفيد بطريقة ما من الفولكلور ويوظفه في القصيدة، بينما فولكلوري آخر لاينتبه لذلك الامر، ايضا هناك مسؤولية البحث في القصيدة، أرى أن الفن الجيد في هذا العصر لم يعد ما تتلقاه وأنت مسترخ ، هذا ينسحب على الموسيقى والرسم والشعر وحتى الغناء .. فالغناء الذي تتلقاه باسترخاء هو غناء رديء ! كل فن جيد يجب ان يوقظ ذهننا ، ويوقظ في نفوسنا أسئلة ما ، فضولاً ما . تنبهاً ما ، ذلك هو الفن، أما الفن الذي يؤدي بنا الى الاسترخاء فذلك هو الفن الميت، وفن الموتى ، يكتبه موتى ، ويتلقاه موتى .

● لا أريد ان أسألك ماذا قدمت للتلفزيون، فالكل يعرف ذلك ،بل أريد ان أسأل ماذا قدم لك التلفزيون ؟

– اتاح لي التلفزيون اقتحام عالم فني لم اكن اعرفه ، وقدم لي فرصة تعميم افكاري الدرامية وتثبيتها وقدم لدي ايضا مورداً ، مالياً لم تقدمه لي كل الفنون الاخرى التي امضيت عمري فيها ومع ذلك لم اتنازل عنها ، فأنا مازلت شاعرا ومسرحياً .. والى جانب التلفزيون .

كذلك قدم لي التلفزيون الشهرة ، لأن ظهوراً واحداً على الشاشة يغني عن ثلاثين سنة من كتابة الشعر .

● دعنا ندخل بخصوصية أكثر ، كيف تنظر للمرأة الأم ، الزوجة الحبيبة، وضمن أية صيغة استطعت مع «إلهام» زوجتك الحفاظ على استمرار هذه الجذوة ؟

– انا كنت اعيش خائنا دائما ، أحب لكي أخون . لكن لحبي متعته ، ولخيانتي متعتها ، ثم احببت «الهام» ولا استطيع ان اصف المسألة عقلانيا، لكن وجدت عذرها انه يستحيل ان تستقيم الامور بيننا ، إلا اذا عشنا سوياً ، وهذا معناه ان نتزوج، وقصة الزواج بالمعنى العقلاني مرعبة ، قلت لنفسي : قد تكون هذه حالة مؤقتة ، نتزوج ونطلق «اقول ذلك بصدق» وفي مقابلة سابقة اجراها معي الشاعر احمد الشهاوي ، سألني سؤالاً قريباً من ذلك فقلت له : هذه المرأة أعني زوجتي «الهام» كل يوم أريد أن أطلقها منذ خمس وعشرين سنة ! «يضحك» لكن بالاعماق يتولد بعد الحب الذي هو توق ، وعواطف ، وشوق ، وشهوات ، يتولد شيء من الحاجة .

في أعمالي أبحث عن الصلة غير المرئية في النفس البشرية

تحس أن لديك حاجة لايلبيها إلا هذا الشخص » الشخصة» .

● أليس في هذا أنانية؟

– اكيد ثمة أنانية في النهاية، فهناك حاجات لايمكن لاحد ان يلبيها حتي ولا كل جميلات الدنيا، كل العلاقات العابرة وكل الشغب الذي يحص حول واحد معروف مثلي، يمكنه واقعه من «تجاوزات» بحيث يشاكس هنا ، ويغازل هناك .. لكن الحاجة الاساسية في النفس لا يلبيها إلا هذا الطرف بالذات، لا شك يمر الانسان « سواء انا او الزوجة» بما يشبه ما اسميه في الفيزياء التفاعل الحروري ، ضع كمية من الماء البارد مع اخرى من الماء الساخن تمر فترة فيصبحا بدرجة حرارة وحداة، فأنا لي مجموعة من المزاجيات وكذلك هي، أنا أدعي أنني كزوج تفهمت مزاجياتها وتقبلتها على الاقل بحدود تسعين بالمائة، وفي هذا الشرق، ولانني لا أريد ان أرتكب احدى الخيانتين كأن اقنعها حتي تصبح ملائمة لي، وبالتالي، ولدى استجابتها سأكون فعليا أمارس العيش مع امراة غير التي هي، أو أن تقمع هي نفسها، وتقدم لي بالتالي شخصية مختلفة. من هنا كنت حريصا على عيش مناخ نكون فيه كلانا نحن تسعين بالمائة على الاقل كما نحن، ضمن اختلاف خصوصية كل منا، وهكذا اصبحت الحياة ممكنة، ولو كان الامر مختلفاً لاختلف كل شيء.

سيرة ذاتية

– ولد في قرية قيرون (مصياف) عام ١٩٤١م.

– تلقى تعليمه في مصياف، وتخرج في جامعة دمشق حاملاً الإجازة في اللغة الانجليزية، عمل في الصحافة الأدبية، وبث له التلفزيون العربي السوري عدداً من المسلسلات والسهرات التلفزيونية.

– عضو جمعية الشعر.

مؤلفاته:

١– المخاض – مسرحية شعرية – دمشق ١٩٦٧م.
٢– الظل الأخضر – شعر – دمشق ١٩٦٧م.
٣– الأبتر – قصة – دمشق ١٩٧٠م.
٤– تلويحة الأيدي المتعبة – شعر – دمشق ١٩٧٠م.
٥– محاكمة الرجل الذي لم يحارب – مسرحية – بغداد ١٩٧٠م.
٦– الدماء تدق النوافذ – شعر – بيروت ١٩٧٤م.
٧– أقبل الزمن المستحيل – شعر– ١٩٧٤م.
٨– أمي تطارد قاتلها – شعر – بيروت ١٩٧٧م.
٩– يالفونك فانفر –شعر– دمشق ١٩٧٧م.
١٠– ليل العبيد – مسرحية– دمشق ١٩٧٧م.
١١– هملت يستيقظ متأخراً – مسرحية – دمشق ١٩٧٧م.
١٢– زنوبيا تندحر عداً – مسرحية.
١٣– لو كنت فلسطينياً – شعر.
١٤– مذكرات كازنتزاكي – ترجمة – جزآن– بيروت ١٩٨٠– ١٩٨٣م.
١٥– حكي السرايا والقناع – مسرحيتان– دمشق ١٩٩٢م – اتحاد الكتاب العرب.

البدوي

شعر/ عبدالناصر صالح*

من ذا سيجرؤ بعد هذا اليوم أن يرثي الخليفة؟
من ذا سيجمع ما تناثر في الهواء الرطب
من خطب الخليفة.
•••
لا وقت للبدوي كي يلقي قصيدته
أمام الخيل والوديان.
لا وقت لي لأنام ملء سريرتي
واغط في النسيان
سأعد مرثاتي
أنا البدوي سرّحتُ النجوم على مناديلي وروضت الذئاب أليفة لقبائل رحلت
وأخرى شاغلتها الريح عن صلصالها ..
•••
متأبطا سيفي
سأصعد من عظام الميتين
ومن تجاعيد الخيام وشهقة الانساغ
منحازاً لإيقاع النواقيس الجريحة
أنتمي لحقيقتي المُثلى ..
أرمم سيرة الشجر المسجى في العراء
بلا مدائح كي يمر دمي
وأعيد ترتيب الخريطة من بدايتها الى عام الفجيعة
من هنا مرَّ الغزاة
بناقلات جنودهم،
والفاتحون
العابثون
سلالة الإفرنج/
مملكة المجوس،/
ولا وقت للعتاب يشتط في النسيان ،
فلتكتب قصيدتك الجديدة أيها البدوي
ولتخلع هواجسك القديمة
والمراثي الرثة البلهاء فوق ضريحك الوهمي
نادتك المدائن:
أهلها المتسلقون جراحهم
وعيونهم ثكلى تولول كالأرامل فوق رفات البيوت.
مأذن الله المباحة تستجير فلا تجار
كأن أنصاب الظلام/ الجهل قد عادت
لتغرس جاهليتها بيثرب
والمغول تمترسوا خلق القلاع
وأحرقوا قصر الخليفة.
من سيخطب، بعد هذا اليوم، في قصر الخليفة؟
من سيقرأ شعره لينال جائزة الخليفة
من سيظفر بالمشانق او سينعم بالخراج؟
فلأي موت تنتمي
يالعنة الآتين من إرث الهزائم ،
لا يجيء سوى السؤال المر وسط خرائب الأعوام
فالأسماء غائبة.
وأبطال الرواية شوهوا وجه المسيح
ولوثوا قدسية العذراء.
كي تبقى النجوم رهينة الضوء المراوغ
والسماء رهينة الغربان
والبرق المزيف
أي موت يصطفيك لكي تؤرخ للقيامة
أو تعيد الروح للجسد/
الخطيئة؟
حولك المدن الغريقة
والشظايا واشتعالات الندى
وعراقة الأمواج
فاخرج من تفاصيل الغواية
كي ينام النحل
واترك للملائكة الصغار نوافذ الفرح المثابر، كيف تنجو
من ثلوج شتائك العبثي
أو تحنو على الاطلال مثل شواهد الموتى
وتسقط في انتظار الغائبين.
•••
ولا للعتب كي ينعي بنادق من مضوا
ووجوه من يتهيأون لموتهم
فاملأ ترابك من رحيق العمر
واعرج بالقرى لمطالع الأفق الهلامي/
الخيانة ادمنت لغة الخطاب
واخرجت بحارة الصحراء من فصل التفاوض
حول حق الثدي في التكوين
فلترسم خريطتك/ الملاءة
فوق سطح الأرض
مثل عباءة خضراء يُلقيها الإله
على سفوح الليل ، كي تخضر
واكتب عن سلالات المدائن
برعم الحناء في احشائها
وعلى أرائكها / الخمائل
وقّع الدوري رقصته
وأسرجت القوافل خيلها
فاحمل صليبك
لست موسى كي تشق عصاك بحراً
أو ترى عينيك في مرآة من سلبوا حرير يديك
في زمن الهوى العبري
فلأي موت تنتمي ؟
ولأي ذاكرة سترجع حين يدهمك الضباب
وتستجير بمائك الوثني.
•••
بين الموت والأعراس فاصلة
واعياد ستطفىء حرقتي
متسربلا بروائح الشهداء
أصعد
لا العواصف أنكرتني
لا خيام الراحلين
ولا الينابيع التي نسيت ملامحها.
•••
فلأي صوت تنتمي؟
حيث الحداء يرن فوق سفوحك التعبى
ولا أقمار ترعى حاصدي قمح البراءة
في سني الثكل ..؟
صوتي ، إذن لا ينتمي للخائفين البائعين جلودهم
والحاسرين رؤوسهم
والجالسين القرفصاء أمام أعتاب الخليفة.
الحالمون بغابة الإسمنت/
والمتهافتون على الموائد والأماسي/
القابضون على الجراح/
الباحثون عن النبوءة في سراديب المتاهة! تحت أعواد المشانق!
من هنا مرَّ الغزاة
ولم يمروا ..
لكأنما كشفت براقعها النجوم
لتبصر الأشياء واضحة
وتوغلٍ في النشيد المستحيل
هدىً لفجر حط خيمته
وأسبغ لونه الأزلي
فوق منابع الذكرى
فأي منابر للحلم أصعد ؟
أي بحر سوف يحملني على موج الصبابة
كي يهز إليَّ جذع الماء ؟
فالأسماء حاضرة
واجراس المسرة في أعالي السطح
ترفع للنخيل غناءه الجبلي
تهبط فوق شطآن الولادة
كي ترتل ما تيسر من مواجدها
الدفيئة ،كنت أصرخ تحت عرش الريح
يا بحارة الصحراء:
قلبي حارس لنشيدكم
وأنين صهوتكم
وطهر صلاتكم
فلتذكروا البدوي
لا الأنواء تجرفه
ولا ليل الدروب القارس النظرات
يبطئ شمس طلعته،
أنا البدوي
لم أسجد لطاغية
ولم أجتر قافيتي على سجف الكلام

لي كل ما في الأرض من شجر الصلاة
فلن تضيع الآن من لغتي القصيدة
حكمة الأنهار تحرسها/
وتحفظ ثديها المخصاب من قلق الخصوبة
مثقل برذاذ اسئلتي
أنا البدوي
قد سكنت بلاد الله خاصرتي
ولم يصطادني النسيان.

*طولكرم – فلسطين ٢٠٠٢/٩/١١م